الحسن بن الصباح

عرفت البشرية «القتل» منذ بداية الخلق.. واستخدم فى كثير من الأحيان لإنهاء صراعات ومن أجل أهداف دنيوية وأخرى دينية وسلطوية.. ولكن مع «الحسن بن الصباح» أصبح، ولأول مرة، منهجا منظما دقيقا وقوة سرية غامضة ومخيفة وعلى يديه تحول القتل إلى أداة أساسية من أدوات جماعته التى جابهت الدول والملوك وأشاعت الرعب والخوف ليصبح ابن الصباح (القاتل التقى) مؤسس الإرهاب. كما عرف بعد ذلك بشكل علمى على أنه (الإرهاب تمارسه منظمة محدودة صغيرة وتلهبه أهداف واسعة النطاق يضمها برنامج متماسك ترتكب من أجله الأعمال الإرهابية).

وهو تعريف دائرة معارف العلوم الاجتماعية .. ليصبح الإرهاب والقتل على أيدى ابن الصباح ذا أسس شديدة الدقة فى إشاعته وتنفيذه من خلال أتباعه المخلصين وتلاميذه من منفذى المهمات الصعبة المليئة بتفاصيل استخباراتية استلهمتها بعد ذلك أجهزة الاستخبارات.

يوم ولد ابن الصباح عام ٤٢٨ هـ كان الإسلام قد عرف الاغتيالات بدءاً من اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين وآل البيت إلى ظهور العديد من الفرق والمذاهب الدينية وثورة الخوارج والشيعة الإثنا عشرية الإمامية والانقسام المؤثر عند الإمام السابع وظهور الإسماعيلية الإمامية بكل ما يحيط بها من غموض وأسرار وأساطير أيضا.. وقيام الدولة الفاطمية إسماعيلية المذهب ليدخر التاريخ لابن الصباح دوراً هاما ليشهد على الانقسام الثانى الهام فى تاريخ الشيعة وانقسام المذهب الإسماعيلى على أرض مصر بعد وفاة الخليفة والإمام المستنصر، وظهور النزارية والمستعلية ليخرج ابن الصباح من مصر ثائرا ومطاردا

ليعود إلى فارس بعد رحلة طويلة ليؤسس أول دولة إسماعيلية فى فارس وجماعته من الانتحاريين الذين عرفهم العالم باسم «الحشاشين» وهبوا حياتهم وأرواحهم فى سبيل معتقداتهم وولائهم لقائدهم القوى ابن الصباح.

مات ابن الصباح وعمره ٩٠ عاما حكم منها دولته ٣٥ عاما ووهب حياته كلها لدعوته وأسس دولته واستخدم فى ذلك الدعوة والأسطورة والقوة والخنجر.. قضى على من اختلف معه.. وامتلك عقول أتباعه بدعوته وتأثيره الهائل عليهم.

ولد ابن الصباح عام ٤٢٨هـ فى الرى كان والده على بن محمد الصباح الحميرى الكوفى ذا أصول حميرية يمنية استوطن "قم" الشيعية وسط إيران وكان والده يعيش منعزلا عن العالم، ويقال إنه كان متفرغا لشهواته وإنه كان يميل إلى الإلحاد رغم أنه كان شيعيا إثنا عشرى ومن أجل أن ينفى تلك المقولة عن نفسه أرسل ابنه الحسن ليدرس فى نيسابور لتلقى العلم على يدى شيخ عرف عنه العلم والإيمان والذهن المستنير وهو الإمام موفق النيسابورى ولديه تعرف على زميله وعدوه اللدود فيما بعد نظام الملك وصديقه الشاعر عمر الخيام وجمعت الصداقة بين الثلاثة باختلاف مذاهبهم الدينية واتجاهاتهم الفكرية وعقدوا مابينهم اتفاقا يقضى بأنه من يصل منهم أولا إلى النفوذ والقوة فعليه أن يساعد الاثنين الآخرين..

وعاد ابن الصباح إلى الرى وكانت مركزا للدعوة الإسماعيلية ويقول ابن الصباح عن حياته (نشأت منذ صغرى على مذهب الشيعة الإثنا عشرية وكنت قد التقيت بواحد من أولئك الطائفين (رفيق) وكان اسمه (أمير زراب) ووصلت إلى القناعة بأن مذهب الفرقة الإسماعيلية يتطابق مع مذهب الفلاسفة ولذلك فقد تجادلت دائما مع «أمير» عندما كان يدافع عن المذهب الإسماعيلى أو عندما كان يهاجم معتقدى غيره إلا أن تلك النقاشات تركت أثرها على ذهنى وعندما أصبت بمرض أضنانى كثيرا توصلت إلى إدراك أن المذهب الإسماعيلى هو المذهب الصحيح وأن عدم اعتناقى له كان تعصباً ولو أننى مت وأنا فى هذه

الحالة لكنت قد فُقدت بلا أمل وعندما استعدت صحتى وشفيت من مرضى التقيت إسماعيليا آخر ثم داعيا سألته أن يقبلنى فى المنصب وقد ارتقيت أنا نفسى فيما بعد إلى رتبة الداعى وبعثت إلى مصر لأنعم بفضائل مشاهدة الإمام المستنصر.

وكان الداعية الإسماعيلى ابن العطاش هو الذى قام بدعوة وتدريب ابن الصباح وفى تلك الفترة كان نظام الملك أحد الرفاق الثلاثة قد استطاع أن يحقق السلطة والنفوذ .. وأصبح وزيرا للسلطان السلجوقى ووفى بعهد الصداقة ومنح عمر الخيام راتبا منتظما لكى يتفرغ لأبحاثه وكتابة الشعر وأعطى ابن الصباح منصبا رفيعا فى البلاط السلجوقى.. ولم يكف ذلك المنصب طموح «الحسن» بل استطاع أن يكون منافسا قويا لنظام الملك مما قضى على عهد الصداقة بينهما واستطاع نظام الملك أن يفضح الحسن أمام السلطان ليطرد من البلاط.. ويعزم على مغادرة البلاد متوجها إلى مصر حاجا إلى إمام الإسماعيلية الخليفة المستنصر ومتلقيا العلم والفقه الإسماعيلى..

وكان الإمام المستنصر الفاطمى قد تولى الخلافة عام ٤٢٧هـ ورحب الخليفة بالحسن بن الصباح بعدما شعر أن الدعاة فى فارس يرسلون إليه التلاميذ والأتباع من ذوى الرتب الرفيعة من الدعاة الإسماعيلية وأن نفوذه امتد ليصل إلى كل بقاع الأرض فأنعم على ابن الصباح بالألقاب والتشريفات ولكنه لم يدعه إلى الدخول عليه وتابع الخليفة كل نشاط وتحركات الحسن بإعجاب وتحدث عنه بالرضا والقبول أمام الجميع حتى ظن أهل البلاط أن ابن الصباح سيحصل على الوزارة ووصى الخليفة بأن يتولى الإمامة من بعده ولده الأكبر نزار طبقا لأصول المذهب الإسماعيلى فى أن الإمامة للولد الأكبر وتوفى المستنصر وبدأت المؤامرات تطل برأسها فى البلاط فقد كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى، الأرمنى الأصل قائدا للجيش والرجل القوى وشقيق زوجة ابن الخليفة والمسيطر على مقاليد الأمور فى الخلافة وكان يسعى للحصول على الحكم فتجاهل تنفيذ وصية المستنصر بعد وفاته وأعلن إمامة (أحمد بن المستنصر)

زوج أخته وأجلسه على عرش الإمامة ولقبه (بالمستعلى بالله).

ولم يكن تحدى شاهنشاه بن بدر الجمالى وتجاهله للوصية لمجرد الحصول على العرش ولكنه كان عبثا بتقاليد وتعاليم المذهب الإسماعيلى ولم يقف عند هذا الحد وإنما استدعى أشقاء (المستعلى) وعلى رأسهم «نزار» صاحب الإمامة والعرش وصاحب الوصية وأمرهم بأن يقبلوا الأرض بين يدى المستعلى وأن يبايعوه بالإمامة.. ورفض نزار الوريث الشرعى وخرج مسرعا متحججا بأنه سيحضر الوثيقة والحجة والعهد الذى كتبه والده يوصيه فيه بولاية العهد وتقلد الإمامة وخرج مسرعا هاربا مع بعض من أنصاره وأتباعه متوجها إلى الإسكندرية وهناك التقى مع القوات التركية التى كانت مرابطة هناك فالتفوا حوله وانضم إليه والى الإسكندرية وقاضيها وأعوانهما.. ولم يكن ابن الصباح بعيدا عن الأحداث فبعد الحظوة التى حصل عليها أيام الخليفة المستنصر كان لابد أن يتخذ وهو الداعية موقفا مؤيدا للشرعية فأعلن رفضه لبدر الجمالى وانضم إلى نزار فى الإسكندرية التى تحولت إلى مركز للمعارضة والتف الأتباع حول نزار وبايعوه بالإمامة ولقبوه (بالمصطفى لدين الله) ورفض عدد من الدعاة وعلى رأسهم ابن الصباح وكثير من أبناء المذهب الإسماعيلى الاعتراف بإمامة المستعلى وأعلنوا ولاءهم لنزار وأبنائه من بعده وشهد ابن الصباح التحول الأخطر فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية وانقسامها إلى النزاريين أو الإسماعيلية الشرقية والمستعليين أو الإسماعيلية الغربية وكان من المستحيل أن يستمر الأمر بهذا الشكل فكان لابد أن يحسم الصراع عسكريا لصالح أحد الطرفين وشعر بدر الجمالى بخطورة وجود مركز للمعارضة على مقربة من الخلافة التى كان هو أول من يعلم بأنها غير شرعية فاتخذ القرار بالقضاء على تلك المعارضة باستخدام القوة خاصة أنها معارضة يساندها الكثير من رجال الدين فسير الجيش ونشبت المعركة بينه وبين نزار ورجاله وكادت المعركة تحسم لصالح النزارية لولا خيانة بعض قواده واستجابتهم لوعود شاهنشاه بدر الجمالى فوقع نزار أسيراً لدى جيش أخيه وسجن هو وولده الهادى وأبناؤه حتى أنه قيل إن

الوزير الأفضل حبسهم تحت الأرض وبنى فوقهم جداراً ودفنهم أحياء حتى لقوا مصرعهم.. واختفى نزار وأبناؤه وبايعت الغالبية من إسماعيلية مصر المستعلى وتبعهم إسماعيلية اليمن.. وخسر ابن الصباح معركته الأولى ووجد نفسه مطاردا من قبل بدر الجمالى بعد إعلانه المعارضة ووقوفه بجانب نزار ولم يكن أمامه إلا أن يرحل هاربا من مصر التى قيل إنه قضى بها ثلاث سنوات.

ورحل على ظهر سفينة متجهة إلى المغرب ولكن كان للقدر ترتيب آخر.. فواجهت السفينة رياحا عاصفة أجبرتها على تغيير وجهتها فوصلت إلى الشام واتجه هو إلى حلب التى استقر بها فترة من الوقت ممارسا مهنته فى الدعوة إلى الإسماعيلية النزارية ثم اتجه إلى بغداد داعيا ومنها إلى أصفهان ثم حدود كيرمان ويزد مستمرا فى تبشيره ودعوته بالدعوة الإسماعيلية النزارية مقابلا فى طريقه المسيحيين بجميع طوائفهم واليهود والبراهماتيين والبوذيين وعبدة النار والوثنيين وقبل كل هؤلاء أهل السُنة ناقشهم جميعا وفهم أن كل طائفة لديها إثبات لصحة عقيدتهم، والفلاسفة أيضا يصارعون لإثبات وجهة نظرهم ورأى منهم من يؤمن بإله واحد ومن يؤمن بآلهة متعددة.. وجلس مع الملاحدة الذين ينكرون وجود الله.. وتعامل مع كل تلك الديانات والاتجاهات بخلفية العالم الذى درس جميع أنواع المعرفة وعلوم الفلك والرياضيات والفلسفة والكيمياء وعلوم الطبيعة والتاريخ واللغات الأجنبية وعادات وتقاليد الشعوب ورسخ فى عقله وقلبه أن الحقيقة صعب الوصول إليها بل إنها غير موجودة وأن كل شىء أمامه مباح وأنه يمكن له أن يتبع هواه دون خوف وأنه فى ذلك قد تكمن المعرفة النهائية..! وأصبحت الدعوة الإسماعيلية النزارية طريقا للكفاح وتحرير البشرية وتحرير فارس من الحكم السلجوقى التركى السُنى وظهرت نزعة القومية الفارسية بوضوح لدى ابن الصباح فى تلك الفترة واشتاق إلى رؤية صديقه عمر الخيام الذى ذاع صيته كعالم للرياضيات والفلك بعدما تفرغ للبحث والعلم مستريحا، فقد كان نظام الملك قد خصص له من خزائن الدولة كل عام ألفا

ومئتى قطعة ذهبية ووقف ابن الصباح على باب عمر الخيام فى نيسابور نحيلا هزيلا.. شديد السمرة.. مجهدا من السفر والترحال والام الدعوة والمواجهات.. واستقبله الخيام فرحا، وتجاذبا الحديث والمعرفة والأسرار وتوصلا معا إلى أن المعرفة الكلية القطعية أمر مستحيل..

وحكى ابن الصباح للخيام عن دعوته واكتشافه أن رجال الدين يهوون إخفاء الحقيقة وأنه توجه بدعوته إلى الناس فى الأسواق أو خانات القوافل وبين الحجاج وفى كل الأماكن التى يتجمع فيها الناس وكان البعض يستمع والكثيرون يشيعونه بالحصى وفهم أنه لابد أن يصطفى من يدعوهم وهم يدعون غيرهم.. غير أن ذلك جعل الطريق أطول.. فالناس لم يعودوا يؤمنون إلا كسلا.. وتساءل ابن الصباح موجها حديثه لعمر الخيام «أتظن أن النبى إذا بشر الناس بالجنة فى هذه الأيام سيجد من يتبعه».

فأجابه الخيام بل سيفشل فالشعلة لا تحترق مرتين ووردة التيوليب الذاوية لا تزهر ثانية.. فالناس سعداء بهناءاتهم المتواضعة فإن لم تملك المفتاح الذى يفتح لهم جنة وجودهم فالأفضل التخلى عن أى فكرة أن تصبح نبيهم».

ومع أن هناك تشكيكا كبيرا من قبل المؤرخين فى صحة هذا الحوار إلا أنه من المؤكد أنه يتفق مع المرحلة التالية فى حياة ابن الصباح فهو كان قد شهد الانقسام الهام فى تاريخ الإسماعيلية وكان مشاركا فيه وكان لديه مشروعه الدينى والسياسى ووجد الأمر مهيأ له ليكون هو حجة الإمام الغائب «نزار» كممثل للإسماعيلية وفى أقدم رسالة نزارية كتبت عام ٥٩٦ هـ جاء فيها (إن حسنا قد تنبأ بالظهور الوشيك للإمام الغائب فى حين حمل هو نفسه رتبة حجة ذلك الإمام».

وجد ابن الصباح لنفسه المرجعية الدينية التى سيقود بها أتباعه فلم يعد أمامه سوى إنشاء الدولة والحصول على المنشآت وكيفية حمايتها فكان لابد أن يكون له جنوده الأوفياء الذين يتبعون أوامره بلا نقاش ويضحون بأرواحهم فى سبيله ليضمن لهم الجنة ونعيمها.

ولابد أن يكون ابن الصباح بما كان له من ذكاء هائل ومعرفة بالعلوم قد وصل إليه أخبار الفرق التى سبقته وطرقهم فى طقوس الموت، ففى القرن الثانى الهجرى ظهر رجل فى الكوفة يدعى «أبو منصور العجلى» ادعى أنه المهدى المنتظر وأطلق دعوته بأن تعاليم الدين لها معنى رمزى ولا توجد حاجة لإطاعتها وتنفيذها حرفيا وأنه لا وجود للجنة أو النار.. وأنهما على الأرض من خلال السعادة والشقاء وكان أتباعه يمارسون الاغتيال ضد من يخالفهم الرأى ويحاربهم وكانوا يغتالون أعداءهم خنقا بالحبال وكانت طريقة الاغتيال تدخل من ضمن ممارسات الطقس الدينى وفى نفس وقت ظهور أبو منصور، ظهر منافس له من نفس قبيلته يدعى المغيرة بن سعيد وادعى هو أيضا أنه المهدى المنتظر وكان له هو أيضا أتباعه من القتلة الذين يقتلون أعداءهم بأسلوب محدد وهو الضرب على الرأس بالهراوات الخشبية، والإثنان كانا يحافظان على أدوات قتل أعدائهم ولا يستخدمان إلا طريقتهما فقط وحرما استخدام الأسلحة المعدنية فى القتل تحت ادعاء أنه لايجوز استخدامها بعد ظهور المهدى.

وكان ابن الصباح قد اطلع على أخبار من سبقه من غلاة الشيعة وأصبحت الرؤية واضحة فى ذهنه فلابد أن يكون لديه فريق للاغتيالات واختار الخنجر كوسيلة للقتل..

وعاد الحسن إلى ترحاله من جديد فذهب إلى خوزستان ثم استقر فى دامغان ثلاث سنوات ثم رحل إلى جرجان تاركا خلفه الأتباع والتلاميذ حاملا لقب حجة الإمام وفى جرجان وقع الصدام المحتوم بينه وبين صديقه اللدود الوزير نظام الملك السُنى المذهب والصباح الإسماعيلى الذى يسعى بكل قوته للقضاء على الدولة السلجوقية السُنية.. ووجد أن المواجهة لن تنتهى لصالحه فهرب إلى قزوين، وشعر ابن الصباح أن الوقت قد حان للحصول على قاعدة ينطلق منها وينظم صفوفه ويخرج مخططه بالكامل إلى حيز التنفيذ ووقع اختياره على قلعة «ألموت» التى تعنى (عش العقاب) وهى حصن هائل مقام على قمة صخرة عالية فى قلب جبال اليورج ترتفع أكثر من ٦٠٠٠ قدم فوق سطح

البحر ولايمكن الوصول إليها إلا عبر طريق ضيق شديد الانحدار وتشرف القلعة على واد مغلق صالح للزراعة يشقه نهر «ألموت» الذى يجرى بين منحدرات صخرية عمودية وناتئة وكان أحد ملوك الديلم القدامى هو من بنى تلك القلعة. فأثناء رحلة صيد له أطلق «نسره» الذى طار حتى وقف على قمة الصخرة فأدرك الملك أهمية الموقع وأمر ببناء الحصن فوقها وحمل من بعدها اسم «نسره».

ورأى ابن الصباح أنه أخيرا استطاع أن يحصل على مركز قيادته فاستقر فى دامغان وبدأ يرسل دعاته إلى القرى المحيطة بالقلعة وكانوا من الفلاحين الفقراء البسطاء وكانت القلعة يسيطر عليها رجل علوى يدعى (مهدى) كان السلطان السلجوقى قد منحها له ولم يكن ممكنا اقتحام القلعة بالقوة فلجأ الحسن إلى الحيلة فبعد أن أصبح ولاء أهل القرى له ولدعوته بدأ يرسل دعاته متنكرين إلى داخل القلعة يدعون جنودها وأهلها وحاول الدعاة الوصول إلى سيد القلعة ودعوته هو نفسه إلى المذهب الإسماعيلى وتظاهر (مهدى) بأنه مقتنع بما يدعونه إليه بعد أن شعر أن الإسماعيلية يحاصرونه داخل قلعته وتحايل على المتحولين من جنوده حتى استطاع إخراجهم من القلعة ثم أغلق أبوابها وأعلن أنها ملك السلطان وأنه تابعه.

وأمر ابن الصباح أتباعه بأن يحاولوا العودة مرة أخرى إلى القلعة وأن يتظاهروا بتركهم الإسماعيلية واستطاعوا بالتحايل والتودد إلى مالك القلعة أن ينفذوا أوامره ونجحوا فى العودة مرة أخرى حتى استطاع هو نفسه دخول القلعة متنكرا فى زى «معلم» مستخدما اسما مستعارا (ديخودا) ونشط فى تعليم أبناء حامية "ألموت" العسكرية وعمل على تسريب رجاله إلى القلعة وما حولها حتى شعر أن الوقت مناسب لكشف هويته وواجه مالك القلعة الذى وجد نفسه محاصرا بأتباع ابن الصباح وسمح له الحسن بمغادرة القلعة.

بعد تسعة أعوام من الدعوة والترحال بعد عودته من مصر أصبح لدى ابن الصباح مقر للحكم.. فبدأ يضع أركان دولته ودخل قصره داخل القلعة ولم يخرج

منه طوال إقامته فى القلعة إلا مرتين وخلق لنفسه هالة أسطورية تلائم إمام الإسماعيلية بما تحيطه من أسرار وغموض وأمر بحفر قناة وجلب الماء من النهر وأمر بغرس الأشجار المثمرة والحدائق الغناء وبدأ فى تحسين تحصينات القلعة والحصول على مصادر للغذاء لتصمد أمام أى حصار وكان حوله فى تلك الفترة ٧٠ رفيقا مخلصا وبدأ فى إرسال دعاته واستطاع أن يحصل على عدة قلاع أخرى كان أهمها قلعة «لاماسار» فى منطقة رود بار وكانت تحتل موقعا هاما فوق صخرة مستديرة تطل على "شاه ورد" وكان لدى الصباح داعية عبقرى لعب دورا هاما فى تحويل عدد من حامية "ألموت" إلى المذهب الإسماعيلى كان يدعى حسين القعينى الكوهستانى أرسله الحسن إلى كوهستان فى منطقة جبلية تقع على الحدود مابين إيران وأفغانستان لدعوة سكانها وفرض سيطرته عليها ونجح داعية حسين فى مهمته فقد كان سكان كوهستان يعانون تحت الحكم السلجوقى خاصة بعد أن حاول قائد سلجوقى اختطاف شقيقة أحد أعيان المدينة ووجدت الدعوة الإسماعيلية ترحابا هائلا من السكان وسيطروا على كوهستان و"الرود بار" ومناطق أخرى من خوزسيان بزعامة داعية إسماعيلى يدعى أبو حمزة وكان يعمل إسكافيا وسافر قبل ذلك إلى مصر واعتنق الإسماعيلية والذى استولى على قلعتين.. وأصبح تحت قيادة ابن الصباح.

وفى نفس الوقت الذى كان ابن الصباح يفرض سيطرته على القلاع والأماكن النائية كان الدعاة ينشطون فى أماكن النفوذ السُنى والتجمعات الشعبية لتقع حادثة كانت لابد أن تؤدى إلى المواجهة العسكرية مابين الجانبين ليشهد التاريخ بعد ذلك «ميلاد الفدائيين» أو الدعوة الجديدة تمييزا لها عن دعوة إسماعيلية مصر، أو الفرقة الخاصة لابن الصباح أو فرقة الحشاشين كما أسماها المستشرقون الأوروبيون.

بالقرب من الرى وداخل مدينة صغيرة تسمى (سافا) اعتقلت السلطات السلجوقية مجموعة من ثمانية عشر إسماعيليا كانوا يؤدون صلاتهم الخاصة

بمذهبهم وتم استجوابهم وسمح لهم بالانصراف إلا أنهم شعروا بالخطر الشديد خاصة مع وجود مؤذن من سافا كان يعيش فى أصفهان ويعلم مدى خطورة الإسماعيلية وكان يحذر منهم فحاولوا الاتصال به والتأثير عليه بدعوته إلى المذهب فرفض دعوتهم فما كان منهم إلا أن قتلوه ومنح المؤرخ العربى ابن الأثير مؤذن سافا لقب أول ضحية للإسماعيلية، خاصة بعد أن تطور الأمر ووصلت أصداء القصة إلى بلاط الملك وإلى وزيره نظام الملك الذى أمر بالقبض على زعيم الثمانية عشر وإعدامه وكان الزعيم اسمه طاهر ومهنته نجار وكان والده واعظا من كيرمان قتل لدخوله وتبشيره بالمذهب الإسماعيلى وشعر سلطان السلاجقة "ملكشاه" ووزيره نظام الملك بالخطر الشديد بعد تلك الواقعة وما واكبها من استيلاء ابن الصباح على قلعة "ألموت" وسقوط القلاع الأخرى فى أيدى الإسماعيلية وفى بداية عام ٤٨٥هـ استقر رأى السلطان على إرسال حملتين عسكريتين واحدة إلى «ألموت» والثانية إلى كوهستان للقضاء على الإسماعيلية والخلاص من الحسن بن الصباح رأس الفتنة.. وتوجه الأمير أرسلان تاش إلى «ألموت» على رأس حملته ومنى جيش الأمير بهزيمة قاسية بعدما هاجمه رفاق الصباح من القلعة وانضم إليهم سكان المنطقة والقرى المجاورة للقلعة وبعض رجال من كوهستان ثم تدخل القدر لصالح ابن الصباح عندما أعلن عن وفاة السلطان ملكشاه فتم رفع الحصار عن كوهستان.

ولم يعد لدى ابن الصباح شك فى الخطر الداهم الذى يهدد دعوته ودولته الناشئة وحياته أيضا وبدأ فى تنظيم فرقة الفدائيين وقام باختيار مجموعة من الشباب يتميزون بالشجاعة والإخلاص ويمتلكون الجرأة والخفة وقبل كل ذلك الورع الدينى والرغبة فى الموت فى سبيل عقيدتهم وترك كل مباهج الحياة وكانوا يمرون فى أثناء تدريباتهم باختبارات غاية فى القسوة للتدليل على مدى احتمالهم وتلقوا تدريبات دقيقة فى التخفى والتنكر وانتحال مختلف الشخصيات وأيضا فى الحفاظ على الحماس والورع والرغبة المؤكدة فى إرضاء الإمام ابن الصباح مهما طالت مدة المهمة فقد دربوا على القيام بمهمات قد يستغرق

تنفيذها عدة أشهر.. وعرفوا أن السرية هى مفتاح الجنة وأنه لا مكان للاعترافات فى حالة إلقاء القبض عليهم وأن الفرح الحقيقى سيتحقق إذا قتلوا أثناء تنفيذ مهامهم وأن لا سلطة تعلو على سلطة الإمام وأوامره.

وحفظوا أوامر وتعاليم ابن الصباح لأنها طريقهم إلى الجنة والخلود فهو القائل: (إن معرفة الله لا تكون بالعقل والنظر بل بتعليم الإمام لأن أكثر الخلق فى العالم عقلاء ولكل شخص نظرة فى طريق الدين فلو كان نظر العقل كافيا لمعرفة الله لما اعترض أهل مذهب على غيرهم ولكان الجميع متساوين لأن كل الناس متدينون بنظر العقل غير أن سبيل الاعتراض والانكار مفتوح ويحتاج البعض إلى تقليد البعض فالعقل غير كاف وينبغى أن يكون هناك إمام بتعليمه سيعلم الناس).

ولم يكتف الحسن بقدس تعاليم مذهبه الدينى فى نفوس فرقته من الفدائيين وإنما أشعل فيهم الإحساس بالوطنية وبالقومية الفارسية وبدأ بإحلال اللغة الفارسية مكان العربية وكان يطلق على السلطان السلجوقى لقب (التركى الجاهل) ليظهر الاحتقار الشديد له وأبرز مصطلح (رفيق) ليجعل له دلالة بين الإسماعيلية ورغم أن مصطلح «رفيق» المتداول بين الإسماعيلية كان قد ظهر قبل الحسن بن الصباح ولكنه يرجح أنه وجد للتفرقة مابين الأتباع والدعاة أما المنفذون لمخططات الاغتيال فقد حملوا لقب الفدائيين إلى جانب الرفاق أيضا.

وبذل ابن الصباح مجهودا هائلا فى تدريب فرقة الفدائيين فاهتم بتربيتهم الروحية والدينية وأقام لهم مجالس العلم لتدريس المذهب الإسماعيلى إلى جانب التدريبات العسكرية الشاقة ودورات استخبارية من التنكر وتعلم التحدث بلهجات أهالى البلدان المختلفة وكيفية التخفى وانتحال الشخصيات وارتداء ملابسهم ومعرفة طرق وأساليب حياتهم.

فقد كان تنفيذ مهمة ما مثلها يستدعى السفر من فارس إلى مصر وكان المنفذون يتلقون دورات فى كيفية التحمل والحفاظ على حماسهم والكتمان الشديد وأيضا عدم الاعتراف حتى عند إلقاء القبض عليهم وتمنيهم الموت

والفوز به لأنه هو الطريق الوحيد إلى الجنة.

واختلف المؤرخون حول «جنة ابن الصباح» فهل هى الجنة التى على الأرض والتى دارت حولها الكثير من الأساطير التى كان مسئولا عنها ووصفها بدقة الرحالة الإيطالى "ماركو بولو" يرويه عن لقائه بعلاء الدين وهو الأمير قبل الأخير لإسماعيلى فارس فقد نقل «ماركو» للعالم الغربى أن حدائق "ألموت" كانت بها أنهار من خمر وعسل ولبن وورد وياسمين وطيور مغردة وبين كل هؤلاء جوار فائقات الحسن والجمال بارعات فى الغناء والرقص وفنون الدلال وكان الفدائيون الذين يتم تحضيرهم لتنفيذ مهمة من مهمات الاغتيال يسقون شرابا مخلوطا بمخدر الحشيس ويستسلمون للنوم العميق ويتم حملهم ونقلهم إلى تلك البساتين وعندما يستيقظون يجدون أنفسهم بين أنهار الخمر واللبن والعسل يحيط بهم الحور العين كما وعد الله الشهداء فيلهوون ويمرحون وينهلون من كل المتع الحسية حتى يحين موعد عودتهم فيسقون من الشراب المخدر ليستيقظوا فيجدوا أنفسهم فى ثكناتهم وعلى أسرتهم الخشنة ويعلموا أنهم بعد انتهاء مهمتهم ستكون الجنة هى مكافأتهم..

وقد يكون ماروا ماركو بولو مجرد حكايات وأساطير شعبية تناقلها الناس عن حاكم القلعة وما ارتبط بسكانها من أسرار وغموض وعمليات للقتل أثارت خوف الجميع إلا أن أول ذكر عن حدائق "ألموت" كانت تلك التى غرسها ابن الصباح بعد استيلائه على القلعة وإن كان نقل قصص ماركو بولو مرتبطا بالجو الأسطورى الذى يحيط بالشرق عامة وبمجموعة الفدائيين خاصة الذين ينفذون مهامهم ويتلقون الموت بسعادة ويفضلون الموت على الاعتراف بحقيقة مهمتهم وهو مالم يدركه الكثيرون من المستشرقين الأجانب أن فدائيى ابن الصباح لم يكونوا فى حاجة إلى رؤية الجنة حتى يضحوا بحياتهم فى سبيلها وإنما قوة العقيدة وتأثير شخصية ابن الصباح ودعوته كانت كافية تماما لتجعلهم يضحون بأرواحهم فى سبيل معتقدهم.

وبعد أن أسس الحسن بن الصباح فرقته وكان لابد أن يبدأ بعمل قوى يعزز

من مكانته لدى أعدائه ويرهب أصدقاءه أيضا ويعزز مكانته بنصر هائل في الفن الذى اختاره..فن الاغتيال واختار أولى ضحاياه.

وكان صديقه اللدود الوزير نظام الملك وباغتياله تخلص من عدو نذر نفسه للقضاء عليه، وكان أسلوب التخلص منه كافياً لإشاعة الرعب والرهبة من ابن الصباح وفرقته وهو ما تحقق له بالكامل .. ووقع اختيار ابن الصباح على فدائى اسمه "بوطالب أرانى" كان يدين بالولاء الكامل له والطاعة العمياء والرغبة فى الموت فى سبيل العقيدة وكان خفيف الحركة .. يجيد استخدام الأسلحة .. وتحرك إلى منطقة ساهنا من إقليم نهاوند .. ارتدى ثياب الصوفيين وبدا تائها متأملا فى ملكوت الله وظل يراقب تحركات الوزير نظام الملك وموكبه وعاداته حتى جاءت ليلة الجمعة ١٢ رمضان من عام ٤٨٥هـ وظهر موكب الوزير مخترقا الساحة العامة متوجها إلى خيام حريمه فاقترب منه ولم يعترضه أحد فهو الصوفى السائح المبارك حتى أصبح ملاصقا لمحفة نظام الملك وبحركة خاطفة غرز خنجره فى قلبه ليصبح الوزير نظام الملك أول الضحايا السياسية فرقة الاغتيال التى أنشأها ابن الصباح ليليها بعد ذلك اغتيال الإمام " الآمر " بن الإمام المستعلى مغتصب العرش والإمامة من النزارية ليحقق ابن الصباح الانتقام منهم وليؤكد دعوته الجديدة خاصة بعد أن أشاع أن جارية من جوارى نزار استطاعت الهرب من مصر وهى تحمل فى أحشائها ابنا لنزار واستطاعت الوصول إلى " الموت " بمساعدة الأتباع وأنه استتر فى "ألموت" وأن الحسن بن الصباح قد أصبح حجته وأن ذلك الابن الغامض أصبح جدا لخط الأئمة الإسماعيلية النزاريين الذين ظهروا فى "ألموت" بعد ذلك وقد وجدت مجموعة من النقود النادرة من "ألموت" كتب عليها دعاء لذرية نزار .

وانطلقت فرقة الفدائيين - أو كما عرفهم العالم بعد ذلك (بالحشاشين) - لتنفيذ مهامهم وكان ضحاياهم ينتمون إلى مجموعتين رئيسيتين الأولى تضم الأمراء والقواد والوزراء والثانية تضم القضاة ورجال الدين، ممن يهاجمون الإسماعيلية ويصفونهم بالملاحدة والكفار، وولاة المدن وبعض الأعيان واستطاع ابن

الصباح طوال فترة حكمه التى امتدت إلى خمسة وثلاثين عاماً .. قضاها زاهدا متعبدا مخلصا لعقيدته صارما فى تطبيق قواعد المذهب ضاربا المثل فى الصلابة والقوة عندما قام بقتل ولديه واحد منهما لشرب الخمر والثانى لتورطه فى مقتل الداعية حسين قائينى، وضرب مثالا واضحا لأتباعه ومريديه أنه بتخلصه من ولديه اللذين خالفاه فإنه لا يسعى إلى الحكم أو توريث السلطة لأولاده من بعده فهو لم يكن له وريث سوى ولديه اللذين قتلهما بنفسه وقد كشف الحسن بن الصباح عن عبقرية سياسية وعن قدرات غير عادية فى السيطرة على أتباعه وتحريضهم ودفعهم إلى تنفيذ مخطط هائل أوجد له إماما مستورا غامضا ومذهبا دينيا يموج بالثورة وإحياء للقومية وطرد المحتل مع إدراكه ووعيه التام بأن دعوته لا يمكن أن تنجح ضد معاقل الإسلام السُنى وأن أنصاره ليس فى إمكانهم أن يواجهوا ويهزموا القوة المسلحة للدولة السلجوقية، وأن كثيرين قبله قد أصابهم الاضطراب والفشل والتخبط وظهر ذلك فى شكل عنف غير منظم أو ثورات يائسة ولكن ابن الصباح نجح فيما فشل فيه الكثيرون بقوة شخصيته وقدرته على التحريض والامتناع وامتلاكه لكل مقومات الشخصية القائدة والمسيطرة ومما ساعده فى إنجاح خطته والاستيلاء على العديد من القلاع ونشر دعوته ما بين أبناء القرى والفلاحين الذين كانوا يشعرون بالظلم والفقر ويقاومون إقطاع الأمراء أن الدولة السلجوقية لم تظل وقتها دولة مركزية وإنما تحولت إلى مجموعة من الإقطاعيات يحكمها أمراء يتصارعون معظم الوقت فقرر ابن الصباح القضاء عليهم واحدا بعد الآخر فوضع كل منطقة إسماعيلية رئيسية تحت القيادة الكلية لزعيم إقليمى وأعطى الزعماء الإقليميين الحق فى التصرف بشكل مستقل فى إدارة شئونهم وواصلت " ألموت " عملها كمقر قيادة تنسيقى مركزى للحركة الإسماعيلية فى فارس .

وحققت خطة ابن الصباح نجاحا باهراً خاصة بعد أن أصبحت الدولة السلجوقية دولة لا مركزية، وعلا شأن فرقة الاغتيالات التى أصبحت هى الظهر الأول والسمة الغالبة على الإسماعيلية الفارسية ودعامة أساسية من دعائم ارتكاز

دولتهم مما دعا ابن الصباح إلى توسيع رقعة دولته ونشر مذهبه وكانت سوريا هى الهدف الذى وضعه ابن الصباح أمام عينيه واختارها بعناية شديدة، فطبيعتها الجغرافية مناسبة بما يتخللها من جبال ووديان إلى جانب عدم الاستقرار السياسى والصراعات الطائفية والإقليمية التى كانت تجتاح سوريا وقتها خاصة أنها كانت قد دخلت تحت حكم إسماعيلى متقطع من خلال سيطرة الدولة الفاطمية عليها إلى جانب وجود طائفة الدروز بها وهى فى الأصل فرقة منشقة عن الإسماعيليين إلى جانب وجود العلويين وهم شيعة إثنا عشرية يشوب تعاليمهم كثير من الغلو والتطرف، وفى ظل كل تلك الظروف ظهر الصليبيون وتقدموا ناحية الشاطئ السورى ليؤسسوا أربع ولايات هى أديسا ، أنطاكية ، طرابلس والقدس .

وتحرك الدعاة الإسماعيليون فى ذلك المناخ المناسب واستقبل أهل سوريا دعوتهم الثورية بكثير من الأمل ولم ينسوا الهدف الأول الذى أرسلهم من أجله ابن الصباح وهو الاستيلاء على القلاع لتأسيس دولتهم واستطاعوا بعد جهد طويل الاستيلاء على مجموعة من المراكز القوية بوسط سوريا فى المنطقة الجبلية التى كانت تعرف باسم جبل البهرة وعرفت بعد ذلك " بالأنصارية " وكان الفرس هم زعماء القلاع وتميز تاريخهم فى سوريا بالاغتيالات والدم وتصفية الخصوم بسرعة وحزم .. غير أن فكر الاغتيالات الإسماعيلى فى سوريا أخذ منحنى مختلفا ازداد مع الأيام عما أسسه ابن الصباح الذى كان يوظف فريق الاغتيالات لديه لتحقيق حلم إنشاء دولة إسماعيلية فى فارس والقضاء على الدولة السلجوقية السنية وصار الأمر من بعده وأيام خلفائه إلى تحول فرقة الاغتيالات إلى مصدر للرعب وتصفية الحسابات خارج نطاق القضية وتقديم الخدمات للأمراء والملوك مقابل أجر وبرعوا فى تقديم خدماتهم مقابل الحصول على مميزات تبدأ من السماح لهم بنشر دعوتهم وتنتهى بحصولهم على القلاع وهو ما يحدث مع رضوان الحاكم السلجوقى لمدينة حلب وكان بعيدا عن التدين لا يهتم كثيرا بالعقيدة الدينية وسمح لإسماعيلية فارس بنشر دعوتهم وعلى رأسهم زعيمهم (الحكيم المنجم) وكان فى نفس الوقت يعانى من خلافات مع جناح الدولة

حاكم حمص فلم يكن منه إلا أن أوعز إلى أصدقائه الإسماعيلية برغبته فى التخلص منه وهو ما تم بعدما تحركت فرقة الاغتيالات إلى المسجد الجامع بمدينة حمص ليتم اغتيال جناح الدولة أثناء صلاة الجمعة بعد أن تنكر الحشاشون فى زى الصوفية .. وشعر " رضوان " بالسعادة بعد أن تخلص من عدوه وسمح للإسماعيلية بمزيد من الحريات حتى خلف الحكيم المنجم .. زعيم آخر يدعى أبو طاهر الصايغ وحصل على لقبه من مهنته التى كان يمارسها .. ونجح فى الاستيلاء على بعض الأماكن فى الجبال .

وعندما جاء عام ١١١٣م استطاع الإسماعيليون أن يحققوا نجاحا باهراً بعد أن اغتالوا الأمير السلجوقى حاكم الموصل "مودود" أثناء وجوده فى دمشق وفى نفس العام مات رضوان حاكم حلب وحامى الإسماعيليين .. فقامت ضدهم مذابح عديدة وقتل عدد كبير من دعاتهم وعاد الإسماعيلية إلى السر مرة أخرى لا يعلنون عن مذهبهم أو يجاهرون به وظل الأمر كذلك حتى ظهر الداعية بهرام الاسترابادى الفارسى الذى استطاع أن يقنع والى دمشق بأن يمنحهم قلعة بانياس ومنها انطلقت الدعوة الإسماعيلية بقوة وظهر لهم عدو آخر وهم الدروز الذين هاجموهم انتقاما لمقتل أحد أعيانهم كان الإسماعيليون قد اغتالوه فقتلوا الداعية بهرام وفطن الإسماعيلية إلى أن سياسة الاستيلاء على الحصون فى سوريا أمامها عقبات كثيرة ومتربصون أكثر من الصليبيين والسلاجقة والدروز فلجأوا إلى شراء الحصون فاشتروا حصون القدموس ، مصياف ، بانياس ، الكهف الخوابى ، القليعة ، الرصافه .

وفى ذلك الوقت كان الحسن بن الصباح مؤسس الدولة والمذهب والفرقة قد بلغ عامه التسعين ومات عام ١١٢٤م الموافق ٥١٨هـ ليهتز بنيان دولة ألموت فلم يترك وراءه وريثاً بعد أن قتل ولديه " حسين " الذى كان قد اتهمه بالاشتراك فى قتل أحد دعاته وكان يدعى (حسين قائينى) والثانى " محمد " الذى قتله بعد أن اتهمه بشرب الخمر وقبل وفاته بأيام قلائل كان قد أدرك أن الموت يقترب منه فأرسل يستدعى "بزرك أميد" الذى كان حاكما على إحدى قلاعه وكان موضع

ثقته ومنحه الحكم وعين معه ثلاثة من الأعوان ليساعدوه ولم تسر الأمور بهدوء بعد وفاة ابن الصباح وازدادت هجمات السلاجقة على قلعة "ألموت" وقتل السلاجقة ما يزيد على عشرة آلاف إسماعيلى وكان رد الإسماعيلية شديد القسوة فكانوا يغتالون ويقتلون أهل السُنة من الكبار والصغار .

وحكم بزرك أميد أحد عشر عاما وعندما توفى خلفه ابنه محمد وسار على نفس منهج أبيه والحسن بن الصباح وازدادت فرقة الاغتيالات فى عهده نشاطاً وقسوة واستمر حكمه مدة خمسة وعشرين عاماً وعندما توفى خلفه ابنه " الحسن الثانى - على ذكره السلام " وكان ملحدا فصيحا بليغاً له تأثير على العامة يخلب عقولهم بعجائب الأمور حتى افتتن به الكثيرون وظن البسطاء أنه هو الإمام الذى بشر به ابن الصباح فى بداية دعوته وكان للحسن مخطط هائل يسعى لتنفيذه .

وكان ادعاءه بأنه الإمام أو (المهدى المنتظر) . الذى نسب إلى السيدة فاطمة الزهراء مما مكنه من إعلان القيامة الكبرى فى (الفكر الإسماعيلى الذى ترتب عليه تحليل كل المحرمات وإسقاط كل العبادات وادعى أن والده محمد بن بزرك أمير هو والده الروحى أما والده الحقيقى فهو الإمام ابن نزار الذى فر من مصر واختبىء فى "ألموت" وأقام علاقة مع زوجة محمد بن بزرك أمير فكانت ثمرة هذه العلاقة هى الحسن بن محمد بن بزرك أمير، الذى أصبح بموجب هذا النسب أول إمام إسماعيلى يتولى الحكم فى "ألموت" مما مكنه من إعلان برنامجه الإلحادى الذى بدأ بلقب يبيع اسمه فأطلق على نفسه "الحسن الثانى " على ذكره السلام.

وكانت بداياته قد ظهرت منذ أن كان أبوه فى الحكم وكان دائم الخلاف معه خاصة مع إصراره على شرب الخمر وما إن تولى الحكم ومر عامان عليه حتى جهر بدعوته الجديدة واختار لها شهر رمضان عام ٥٥٩ هـ - ١١٦٣ م فأمر بإقامة منبر فى ساحة الميدان فى الوادى أسفل قلعة "ألموت" وأعلن أن هذه هى القبلة الجديدة وجمع أتباعه وأعلن من على المنبر أنه تلقى الرسالة من الإمام المستور وكانت كلمات الرسالة تقول :

" إن الحسن بن محمد بزرك أميد هو خليفتنا وحجتنا وداعينا وعلى شيعتنا أن

يطيعوه ويتبعوه فى أمور الدنيا والدين ، وأن يعتبروا حكمه محكما ، ويدركوا أن قوله هو قولنا "

وكانت تلك الرسالة هى بداية تنفيذه لمخطط أصاب الدعوة الإسماعيلية بالكثير من الآلام والأضرار فكانت تمهيدا لإعلانه الإلحاد والخروج على طاعة الله وشريعته فما إن انتهى من رسالته إلا ودعا أتباعه جميعا إلى الإفطار فى نهار رمضان ثم رفع عنهم الصلاة والصيام ، وأباح لهم شرب الخمر وأطلق على ذلك اليوم وكان يوافق السابع عشر من رمضان (عيد القيام) وكانت ترتكب بعد ذلك التاريخ كل أنواع المحرمات وأبيحت كل المحارم وأثارت الأحوال الجديدة غضب بعض الأتباع المؤمنين مما دفعهم إلى قتل الحسن عام ٥٦٢ هـ .

فى نفس الوقت الذى كان الحسن غارقا فى دعوته وفساده كانت دولة ابن الصباح فى سوريا قد اتخذت بُعدا آخر فلقد استطاع الحشاشون الحصول على القلاع الحصينة ونجحوا فى الحصول على قلاع فى جبل البهرة وحصلوا عن طريق الشراء على قلعة قدموس الجبلية بعد أن باعها لهم صاحبها (السيد المسلم) وكان قد استعادها من أيدى الصليبيين وبعدها بسنوات تنازل ابنه للحشاشين عن منطقة الكهف وفى عام ١١٤٠م استولى الحشاشون على أهم قلاعهم (قلعة مصيف).

وذكرت واقعتان من أهم وقائع الاغتيال التى قام بها الحشاشون فى تلك الفترة وهو اغتيالهم لدهاق بن جندل رئيس وادى اليتم ومقتل الكونت ريموند الثانى حاكم طرابلس على أبواب تلك المدينة وكان أول ضحاياهم من الصليبيين .

فى تلك الأثناء كان الوضع السياسى للمنطقة شديد الحساسية ومليئا بالأنواء فقد كانوا فى حالة عداء دائم مع آل زنكى حاكم الموصل والذين كانوا يسيطرون على خطوط المواصلات بين سوريا وفارس وكانت تربطهم علاقات متينة مع الحكام السلاجقة وكان آل زنكى ينظرون إلى سوريا كمنطقة توسع لنفوذهم وازداد الأمر توترا بعد احتلالهم لحلب وقيام نور الدين بن زنكى بإلغاء الآذان الشيعى فى حلب وإعلانه الحرب على الملاحدة وكان يصنف الإسماعيلية من بينهم وهو ما

ترتب عليه قيام تعاون ما بين الإسماعيليين جعلهم يضعون فرقة من الحشاشين تحارب إلى جانب ريموند حاكم أنطاكية ضد الزنكيين .

فى أثناء تلك التحركات والتموجات السياسية والحربية ظهر قائد الحشاشين فى سوريا سنان بن سلمان بن محمد، المكنى برشيد الدين وصاحب لقب " شيخ الجبل " الذى أطلقه عليه الصليبيون كان وصول ذلك الرجل إلى زعامة الحشاشين فى سوريا قد تم بشكل أسطورى يناسب الأحداث التى كان يمر بها المذهب نفسه فلقد توافق حصول شيخ الجبل على السلطة نفس العام الذى وصل فيه الحسن بن محمد بن بزرك أميد إلى حكم "ألموت" مع إعلانه لعيد القيام وإلغائه للشريعة .

وقصة وصول سنان إلى الحكم تستحق أن تروى وقيل فيها (إنه نشأ فى البصرة وكان أبوه واحدا من نبلائها وقد دخلت الدعوة الإسماعيلية إلى قلبه ثم اختلف مع إخوته فتركهم وخرج يهيم على وجه وهو لا يمتلك شيئا وظل سائراً حتى وصل إلى مهد الدعوة ومنشئها قلعة ألموت وكان حاكمها وقتها محمد بن بزرك أميد وكان له ولدان هما الحسن والحسين وقد وضعه فى المدرسة معهما وأولاه كل رعاية حتى مات وخلفه ابنه الحسن فأمره أن يذهب إلى سوريا ووصل فى رحلته إلى الموصل ونزل بمسجد النجارين وقضى الليل فيها وواصل سيره ولم يتوقف فى مدينة أخرى حتى بلغ " الرقة " وسلم رسالة لأحد الدعاة هناك وواصل سيره حتى حلب وهناك التقى رفقاء آخرين سلمهم الرسائل وواصل سيره حتى قلعة فى الكهف وشهد أحداث مقتل زعيم القلعة وواصل رحلته حتى استطاع أن يصبح زعيما لحشاشى سوريا وفى نفس الوقت أعلن الحسن فى (ألموت) عن شريعته الجديدة وكان على سنان موفد الحسن للزعامة فى سوريا أن يقوم بتنفيذ الشريعة القديمة ويقول المؤرخ كمال الدين بن العديم فى كتابه (زبدة حلب من تاريخ حلب) عن أحداث تلك الفترة: "انخرط سكان جبل السمان فى الآثام والفسوق وأسموا أنفسهم المتطهرين " واختلط الرجال والنساء فى حفلات الشراب ولم يمتنع رجل عن أخته أو ابنته وارتدت النساء ملابس الرجال وأعلن أحدهم أن سنان هو "ربه " وقيل إن سنان سمح لهم بتدنيس أمهاتهم وأخواتهم

وبناتهم، وأعفاهم من صيام شهر رمضان .

وفزع أهل السُنة لما يحدث لدى جيرانهم الألداء وانتشرت الشائعات لتزيد من الأمر سوءا وحتى إذا كان الأمر يحمل كثيرا من المبالغات فإنه من المؤكد أن إعلان انتهاء شريعة الإسلام بين الإسماعيليين فى سوريا قد حدث بالفعل .

وترتب على ذلك أن أعلن حاكم حلب الحرب عليهم وأرسل جيشا يطاردهم فهربوا إلى الجبال، فما كان من سنان إلا أن تدخل بقوة وأعلن تبرؤه من المتطهرين، بل هاجم بنفسه أماكنهم ودمرهم وأقنع جيش حلب بالانسحاب وكانت بلا شك تلك مناورة من سنان مبعوث الحسن حتى يتفرغ لتدعيم مملكته الجديدة فقرر أن يخمد تلك الأحداث وأعاد بناء قلعتى الرصافة والخوابى واستولى على قلعة (العليقة) وكان الحكام يغضون الطرف عن نشاطه خوفاً من سطوته وفرقة الاغتيالات وسعى لتدعيم سلطته بكل قوته وبدأ فى الانفصال التدريجى عن سلطة (ألموت) السياسية والدينية أيضا بعد أن ادعى هو أيضا أنه الزعيم المقدس الأعلى.

وطد سنان سلطته على إسماعيلية الشام وظهر له عدو قوى جديد هو صلاح الدين الأيوبى الذى كان يناضل من أجل القضاء على الصليبيين وتنبه إلى خطر الحشاشين فى سوريا مما دفعه إلى حصار قلعة مصياف قاعدة سنان شيخ الجبل ولكن فى أثناء حصاره لهم تلقى صلاح الدين نصيحة من أحد قواده بأن يرفع الحصار عن الحشاشين ويتركهم حتى يتفرغ لقتال الصليبيين ولا يفتح على نفسه عدة جبهات فى آن واحد .. ونفذ صلاح الدين النصيحة ولكن بعد أن أصبح هناك عداء ما بينه وبين الحشاشين مما دفعهم لتدبير عدة محاولات لاغتياله كانت واحدة منهم عبارة عن رسالة .. عندما استيقظ صلاح الدين ذات يوم فوجد فى فراشه خنجرا ومعه بطاقة من سنان وكان مغزى الرسالة أنه لو أراد قتله لفعل دون أن يشعر به أحد .

ويقال إن أول محاولة للحشاشين لاغتيال صلاح الدين وقعت فى شهر يناير عام ١١٧٥م بينما كان يحاصر حلب .. وأن من حرض على قتله هو حاكم حلب من

أسرة زنكى عندما وعد سنان بالمال والأرض مقابل قضائه على صلاح الدين .. فما كان من سنان إلا أن أرسل عددا من أفراد فرقة الاغتيالات دخلوا معسكر صلاح الدين ونجحوا فى التسلل وتعرف عليهم الأمير أبو قبيس وهو جار لهم وعندما سألهم عن غايتهم قتلوه .. وتنبه الحرس فاشتبكوا معهم وقتل كثيرون ولم يصب صلاح الدين بسوء ولم يتخل سنان عن هدفه وانتظر عاما آخر حتى كرر محاولته وأرسل مجموعة من فرقة الاغتيالات تنكروا فى زى جنود جيش صلاح الدين أثناء حصاره لمدينة غزز " وهاجموه فى وقت واحد واستطاعوا أن يصيبوه بإصابات بسيطة فقد كان يرتدى دروعا معدنية تكاد تغطى جسده كله ولم تفلح محاولات اغتيال صلاح الدين وإن كانت قد جعلته أكثر حذرا وحفاظا على حياته حتى أنه كان ينام فى برج خشبى أقيم خصيصا لحمايته ولم يكن يسمح لأحد لا يعرفه شخصيا بالاقتراب منه .

وفى نفس الوقت الذى كان سنان يحاول فيه وضع دعائم دولته القوية كان الأمر مختلفا فى قلعة ألموت التى شهدت قيام دولة الإسماعيلية الفارسية فبعد أن قتل الحسن وتولى بعده ابنه محمد الذى لم يكن أفضل منه وظل فى الحكم ستة وأربعين عاما سار فيها على منهج والده من الإلحاد وسفك الدماء فقد تولى بعده ابنه الحسن الثالث حكم " ألموت " وكان يلقب بجلال الدين .. وكان مختلفا عن والده وجده فقد كان تقيا ورعا يخاف الله وهاله ما وصلت إليه الأمور من الانحراف والانحلال .. فأعاد العمل بالشريعة الإسلامية مرة أخرى وألغى كل ما أباحه والده وجده وأعاد عمارة وبناء المساجد وبحث عن العلماء وأحضرهم لإقامة مجالس العلم ونشر الدين ما بين الناس وكانت نتيجة عودة الحسن الثالث إلى الدين أن تغيرت النظرة إليه حتى أن الخليفة العباسى اعترف بإسلامه وأطلق عليه المسلم الجديد وحكم أحد عشر عاما وعندما مات تولى ابنه علاء الدين الحكم من بعده وكان فى التاسعة من عمره وسيطر عليه كبار المعاونين الذين كانوا اعتادوا على الفساد والانحلال وساءهم إصلاحات الحسن .. وظل علاء الدين فى الحكم خمسة وثلاثين عاما وكان ظالما جباراً مفسداً فى الأرض حتى قتل عام

٦٥٣ هـ فتولى الحكم من بعده ولده ركن الدين شاه الذى عانى هو أيضا مفاسد والده وكان يرغب فى أن يعود إلى حظيرة الدين الإسلامى ولكن القدر لم يمهله فالمغول كانوا قد بدأوا فى اجتياح الممالك الإسلامية ووقفوا على أبواب ألموت فلم يمر سوى عام واحد على وصوله إلى الحكم حتى دك هولاكو قلعة ألموت وعلى يديه سقطت الدولة الإسماعيلية الفارسية عام ٦٥٤ هـ.

وفى تلك الأثناء كان الوضع لدى إسماعيلية الشام مازال متماسكا تحت قبضة سنان القوية والذى كان يتشابه مع الحسن بن الصباح فى كثير من الأمور حتى أنه أضاف إلى الإسماعيلية معتقدات جديدة فقد أضاف إليها التناسخ وبسط نفوذه على دولته فى سوريا وختم أمجاده باغتيال المركيز كونراد أوف مونتغيرات ملك بيت المقدس بينما كان فى صور وتنكرت المجموعة التى قامت باغتياله بزى رهبان مسيحيين أتقياء جاءوا ليقابلوا الأسقف الذى كان مجتمعا بالمركيز وشقوا طريقهم إلى لقائه ثم انهالوا على المركيز خنقا حتى قتلوه .

وبعد الاغتيال اختلفت القصص حول مقتل أمير القدس فقيل إن ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا هو من أوعز إلى سنان بقتل المركيز خاصة بعد أن تزوج الكونت هنرى أوف شمبانيا أرملة كونراد وحصوله على عرش إمارة القدس .. وقيل إن صلاح الدين كان هو مدبر الاغتيال وكانت تلك هى رواية المؤرخ ابن الأثير حتى أنه أشار إلى مبلغ المال الذى دفعه صلاح الدين إلى سنان.

وكانت نتيجة اغتيال المركيز كونراد أن تخلص ريتشارد من عدوه اللدود وواصل الحرب التى انتهت بهدنة مع صلاح الدين بعدها بشهور قليلة ومن ضمن الشروط حصول صلاح الدين على أراضى الحشاشين .

ومات سنان شيخ الجبل وخلفه على مملكته فارسى يدعى نصر الذى وضع نفسه تحت سلطة ألموت حتى الاجتياح المغولى وظلوا يعلون يوما ويهبطون أياما حتى اجتاحتهم هم أيضا جيوش الظاهر بيبرس ووضعهم تحت قيادته ووزع أراضيهم على كبار قواده وأمر بجمع الضرائب والرسوم التى تصل إلى الحشاشين وأمرهم بدفع الجزية إليه وأصبحوا تحت إمرته وهو ما أخاف أعداءه من أمراء

الصليبيين وقيل إن بيبرس كان يهدد كونت طرابلس بالاغتيال .. كما أن محاولة اغتيال الأمير إدوارد الإنجليزى عام ١٢٧٢ وربما أيضا محاولة اغتيال فيليب أوف مونتجيرات حاكم صور كانتا بتدبير من بيبرس استخدم فيها فرقة اغتيالات الحشاشين الذين أصبح يسيطر عليهم ويعين رؤساءهم بنفسه .

وذكر الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى عاش فى القرن الرابع عشر .. فقرة عن علاقة سلاطين المماليك بالحشاشين فقال: (عندما يريد السلطان أن يرسل واحدا منهم لقتل أعدائه كان يدفع له ثمن دمه فإذا استطاع القاتل أن يفلت بعد أداء مهمته كان يأخذ النقود له وإذا قتل ووقع فى الأسر كان المال يعطى لأولاده أو ورثته وكانوا يستخدمون خناجر مسمومة لقتل ضحاياهم وأحيانا كانت خططهم تفشل ويتعرضون هم أنفسهم للقتل) .

وعاش الحشاشون فى سوريا كجماعة صغيرة لم تعد لهم أهمية سياسية كبرى خاصة بعد أن انحصرت شهرتهم فى تنفيذ الاغتيالات وكان قد سبقهم تشتت الإسماعيلية الفارسية وهاجر بعضهم إلى الهند وتوغل بعضهم داخل فارس .

وأصبح كل من الإسماعيليين السوريين والفارسيين يتبعون زعماء مختلفين حتى جاء القرن السادس عشر وبعد سيطرة العثمانيين على العالم الإسلامى وأجروا أول عمليات مسح للأراضى والأهالى وسجلت فيها منطقة (قلعة الدعوة) فى غرب حماة بسوريا باعتبارها منطقة يسكنها أتباع فرقة خاصة يدفعون ضريبة خاصة وعاش أبناء الفرقة فى الظل حتى بداية القرن التاسع عشر وحدث أن اشتبكوا مع جيرانهم فى شجارات عديدة وعادوا مرة أخرى إلى حياة الهدوء والاستكانة وأصبح معظمهم يدينون بالولاء لأغاخان بصفته سليل أئمة ألموت وتنتهى إليه ولاية الطائفة الإسماعيلية وتم ذلك فى أحداث شهدتها إيران وأفغانستان والهند .

فبعد سقوط ألموت على يد المغول وانهيار دولتهم فى إيران انتشر الإسماعيليون فى الأرض وهاجر معظمهم إلى الهند .. وهناك عاشوا بين أهلها ومع الوقت بدأوا فى نشر دعوتهم حتى دخلها كثير من الهنود .. وعندما جاء عام ١٨١١م ظهر فى

قرية كيك بالقرب من مدينة "قم" بإيران رجل اسمه " شاه خليل الله " يدعى أنه من نسل أئمة الإسماعيلية وجمع حوله الأتباع والمريدين الذين كانوا يجلونه ويحترمونه .. وكان يأتى إليه الأتباع وأبناء المذهب من الهند ليحجوا إليه وليقدموا له الهدايا وتزايدت قوة شاه خليل الله حتى أنه أقدم على القيام بثورة فى إيران وألقى القبض عليه ونجح الانجليز فى ذلك الوقت بتحريره بعد أن رأوا فيه رجلا قويا يمكن أن يساعدهم فى تنفيذ مخططاتهم فى إيران وأفغانستان والهند وبالفعل قاموا بمساعدته للذهاب إلى أفغانستان التى لم يستطع أن يحقق فيها نجاحا يذكر .. فذهب إلى بومباى فى الهند وجمع حوله أتباعه وأعلن أنه إمام الطائفة الإسماعيلية ولقب " بأغاخان " ورغم دعم الانجليز له ووجود العديد من الأتباع إلا أنه اعترض عليه كثير من أبناء الطائفة الإسماعيلية ورفضوا الاعتراف به حتى حدثت الواقعة التى أسهمت فى تأكيد ولايته على الطائفة المستمرة حتى الآن .

ففى عام ١٨٥٠م حدث شجار فى مدينة بومباى نتج عنه سقوط أربعة رجال قتلى ونظرت القضية أمام المحاكم وقدم إليها تسعة عشر رجلا حكم على أربعة منهم بالإعدام شنقا .. وكشفت تفاصيل القضية عن صراع دام بين طائفة " الخوجا " الدينية التى كان ينتمى إليها القتلة والمقتولون حول أحقية دفع الضرائب إلى شاه خليل الله باعتباره إماما للطائفة الإسماعيلية والتى كان يرفض بعضهم الاعتراف به وفتحت تلك القضية أمر الخلاف ما بين أبناء الطائفة ولحسم الأمر لجأ أبناء الطائفة المعترضون على ولاية أغاخان إلى القضاء للحصول على حكم يمنع أغاخان من التدخل فى شئونهم .. ونظرت القضية أمام القاضى الانجليزى سير جوزيف أرنولد واستمرت لمدة شهر تقريبا تقدم فيها كلا الجانبين بما يمتلكه من وثائق ومستندات تؤكد روايته حتى أن أغاخان نفسه مثل أمام المحكمة وقدم المستندات التى تدل وتثبت حقيقة نسبه وجاء الحكم منصفا له وقيل فيه " إن طائفة الخوجا فى بومباى جزء من طائفة الخوجا الكبيرة فى الهند وأنها تنتمى دينيا إلى الشيعة الإسماعيلية وكان أجدادهم من الهنود الذين تحولوا إلى الشيعة

الإسماعيلية وظلوا متمسكين بها وكانوا يرتبطون بالولاء لورثة الإسماعيلية وأن تحولهم إلى عقيدة الإسماعيلية تم منذ أربعة قرون بواسطة داعية إسماعيلى جاء من إيران وظلوا تحت السلطة الرومية لنسل الأئمة الإسماعيلية وآخرهم أغاخان وهؤلاء الأئمة من نسل أمراء قلعة ألموت الذين يدعون أنهم من نسل الخلفاء الفاطميين فى مصر (الإمام نزار بن المستنصر الفاطمى) وينتمون إلى نسل النبى صلى الله عليه وسلم وأتباعهم هم الذين اشتهروا فى القرون الوسطى باسم (الحشاشين).

وكان صدور الحكم بمثابة تأكيد لا يقبل الشك بسلطة أغاخان وتبعيته لأئمة ألموت التى بدأت بالحسن بن الصباح مؤسس الدولة والدعوة الجديدة ومؤسس نظام الاغتيال السياسى .

وخلف حسن على شاه ابنه "أغا على شاه " ملقب بأغاخان الثانى وكان تم إعداده لتولى الإمامة بشكل علمى ووثيق فكان "أغاعلى" محباً للثقافة والعلم وتعلم اللغات وكان منفتحا على الجميع وسعى لأن يتلقى أبناء طائفته التعليم الجيد وتزوج من أميرة إيرانية هى " بيبى خان " وأنجبت له ابنه محمد الذى أصبح أغاخان الثالث الذى توفى والده وهو طفل صغير لم يبلغ العاشرة من عمره وتولت الأميرة بيبى والدته رعايته وتعليمه حتى كبر وكانت دائما ما تقدم له النصح. وقد يكون الأغاخان الثالث هو خير دليل على انتسابه إلى أئمة ألموت فبعدما تولى أمور الطائفة أصبح ينتمى عقائديا إلى " الحسن بن محمد بن برزك " صاحب دعوة الإلحاد وتارك الإسلام ورغم قناعاته العقائدية إلا أنه كان عاشقا للعلم ومنظما حتى أنه كان هو واضع دستور الطائفة الإسماعيلية ومنظما لمراكزها فى العالم ففى أفريقيا جعلها فى دار السلام ، " ونيروبى " وكمبالا وكان يقوم بتعيين رئيس لكل مركز لمدة عام وجعل مركز قيادة الإسماعيلية النزارية فى العالم كله مدينة كراتشى وكان ولاؤه الكامل للإنجليز كما كان أجداده من قبله حتى أنه فى أثناء الحرب العالمية الأولى وجه نداء إلى العالم الإسلامى للوقوف إلى جانب الحلفاء ولم تبتعد عيون الأغاخان الثالث أبدا عن مصر وقد حدثت واقعة عام ١٩١٤

أكدت ذلك .. ففى ذلك العام عزلت الحكومة الانجليزية الخديو عباس حلمى لمناصرته الألمان فى أثناء الحرب العالمية الأولى واختلف الرأى فى لندن فيمن يخلف الخديو وكان من رأى وزارة الخارجية الإنجليزية أن الأمير حسين عم الخديو وأكبر أفراد العائلة المالكة فى ذلك الوقت " غير متمتع بقواه العقلية " واقترح الملك جورج الخامس على مستر "اسكويت" رئيس الوزراء تعيين أغاخان سلطانا على مصر ورحب رئيس الوزراء بهذا الاقتراح ولكن جاءت المعارضة من اللورد كتشنر وأصر على أن يكون الأمير حسين سلطانا .

وكان للأغاخان ولدان وقبل وفاته اختار حفيده كريم لأمانة الطائفة الإسماعيلية وتم دفنه فى مصر فى قبر اختاره بأسوان .